العربية الصحيحة

شفيق جبرى
عضو المجمع العلمى العربى بدمشق

تحدث « اناتول فرانس » في بعض احاديثه الادبيه عن امام العصبه في فرنسه «دى موباسان» وقد اشار في حالته من خصائص فنه واسراره ، ولكنى لا اشير في هذا المقام الى ما ذكره من قدرته ومرونته وغير ذلك ، فلا يعنينى من كل ما قاله الا العبارة التى ختم بها حديثه ، فقد قال في ختامه هذا الحديث :

« انا ما يتعلق بنعت السيد «دى موباسان» فاني اكتفى بان اقول ان هذه اللغه انما هى من الفرنسيه الصحيحه ولست اعرف ثناء أجمل من هذا الثناء » .

هذه هى العبارة الوحيدة التى حبست عليها الذهن فاقتبستها لتكون عنوان المقال ، فقد استغنى «اناتول فرانس» عن الخوض فى كل ما يتصل بمحاسن لغه « دى موباسان» ولخص هذه المحاسن فى قوله : لغته من الفرنسيه الصحيحة ، والذين درسوا هذه اللغة يعرفون ان الفرنسية الصحيحة هى التى تجمع الوضوح والسهولة والبساطة وما شابه ذلك .

انفصل فى هذا المقطع عن هذين الامامين ، واجعل نصب عينى العبارة التى اقتبستها فاهتم بالعربيه الصحيحة وبما صارت اليه فى هذه الايام ، وما أظن بى حاجة الى الاسراف فى الكشف عن خصائص العربيه فان هذه الخصائص لا تخفى على الذين قلبوا النظر سنين طويلة فى القرآن الكريم والحديث الشريف وخطب الخلفاء الراشدين والخوارج وكلام شيوخ الشعر وبلغاء الكتاب الذين اجتمعت لهم اسباب البيان فملكوا أعنة الكلام فلم يعجزوا عن الافصاح عن شئ من الافكار بما يناسبه من الالفاظ ولم يخرجوا فى هذا الافصاح عن روح اللغة وعبقريتها .

اذا كان موضوع العربية الصحيحة قد خطر الآن ببالى فانسبب فى هذا ان الذين يغارون على لغة العرب يمرون فى هذا العصر بنمط من البيان لا يعلمون من أية لغة ، فلا هو من بيان العرب ولا هو من بيان الافرنجة ، فالذى يؤلمنا أن المحافظة على لغة العرب الصحيحة فى بعض الصحف ودور الاذاعة وفى بعض المؤلفات قد ضعف أمرها حتى كاد يضمحل ، وقد كان أئمة البيان فى أوائل هذا القرن وأواخر القرن الماضى اذا وقعوا على شئ من اللحن نبهوا عليه ، وقد تطول المناظرات فى هذا التنبيه ، ولا ننسى اهتمام الشيخ ابراهيم اليازجى بتتبع لغة الجرائد ومغالط الكتاب والشعراء ، ولا ننسى مناظرة الائمة فى هذا الموضوع ، أمثال الامير شكيب أرسلان ومن هم فى طبقته ، أما الآن فقد أطلقت الاقلام اطلاقا ، فأصحابها ينحرفون فى بعض الاحايين عن اللغة وروحها فلا نجد من ينبههم على هذا الانحراف ، حتى لو نبهوهم لما بالوا بهذا التنبيه ، أذكر أن أحد طلاب كلية الآداب فى الجامعة السورية جاءنى بعد فراغى من التدريس واستأذننى فى قراءة قصيدة على من شعره ، فقرأ القصيدة ولا بأس بشاعريته ، الا أنه جاءت فى القصيدة لفظة غير صحيحة فلفت ذهنه اليها فقال : يا أستاذ ! مسألة اللغة بطلت ! وصاحبنا من أصحاب الشمال ، فمسألة اللغه لم تبطل فى نظر هذا التلميذ وحده ولكنها بطلت فى نظر كثير من الذين يمسكون بالاقلام فلا يبالون بما تجنى أقلامهم على اللغة ، ولو شئت أن أدون طائفة من هذه الجنايات لاعوزتنى أوراق كثيرة ، ولست فى حاجة الى أن أحلف انى لا أفهم ما يقولون ، وانى لاجزم أن كثيرا من أمثالى لا يفهمون ما لم أفهم .

لا ريب فى أن العصر الذى نعيش فيه انما هو عصر الانقلابات والثورات وما شابه ذلك ، ولم تقتصر هذه الانقلابات والثورات على مذاهب العلم والاقتصاد والاجتماع والسياسة وحدها ، ولكنها امتدت الى اللغة نفسها حتى أصبح الذين يهتمون بلغة العرب ويغارون على

عبقرية هذه اللغة فى نظر كثير من المهوسين موتى او مرضى أو مشوهين ، وهم لا يدرون أن الذى مات انما هو فهمهم وأن الذى مرض انما هو ذوقهم وأن الذى شاه انما هو أدبهم ، ولست أعلم ولا يعلم غيرى مدى هذا الهوس ، ولما ذا لا أقول : هذا الجنون !

كنت فى بلدة من ولاية « فيرجينية » فى اميركة ، فدخلت عرضا جامعة هذه البلدة وزرت مكتبتها ، فوقعت عينى على كتاب لا يحضرنى اسمه ولا اسم مؤلفه ، ولكنى أذكر أنى وجدت فى بعض صفحاته أن أحد رجال «الكونغرس» قال فى المجلس : انا نضع القوانين لمعاقبة المجرمين من اللصوص والقتلة وغيرهم ، فلما ذا لا نضع قانونا يعاقب به الذين يفسدون اللغة ويتهاونون بمقدساتها .

هذا قول قيل فى أمريكة ، فى البلاد التى يزعمون أنها غرقت فى المادة فلم تكن عنايتها بأمور الفن والادب واللغة على قدر عنايتها بالمعامل والمصانع ، فما بال البلاد التى لم يبق لها من ميراثها الضخم فى تاريخها الا اللغة ، ما بال هذه البلاد يرى رجال الامر فيها فساد اللغة ولا يتحركون ، فان أهل الادب لا يستطيعون أن يروا بأعينهم الاستخفاف باللغة ومقدساتها دون أن يساورهم الالم فى هذا الاستخفاف ، ولو تتبعنا تاريخ الامم الادبى لرأينا ان هذا التاريخ ملآن من أسماء الذين وقفوا أنفسهم على الدفاع عن اللغة ومناهضة الذين يعبثون بروحها وعبقريتها ، ولم يكن اهتمام الامم بلغتها فى القديم أكثر من اهتمامها بها فى الحديث فقد قرأت من أربعين سنة فى بعض الصحف او بعض الكتب أن ناقدا من نقاد ايطالية المشهورين قال : انى أمر فى هذا العصر بعبارات فأشعر بأن معدتى تنقلب على ، ولا شك فى أن معدته لم تنقلب عليه الا لان تلك العبارات خارجة عن روح اللغة الايطالية .

من بدائه الامور ان اللغة لا تقف عند أفق من الآفاق ، فهى فى حركة مستمرة ، فى انتقال من طور الى طور ، ففى كل عصر تموت ألفاظ وتولد ألفاظ ، فى كل عصر تنتقل ألفاظ من وجه الى وجه . مرة تنتقل من معنى خاص الى معنى عام ، ومرة من معنى عام الى معنى خاص ، فى كل عصر تولد تراكيب لايعرفها العصر المتقدم ثم تموت تراكيب كانت تعيش فى القديم ، والشواهد فى هذا البات كثيرة ، فانا لا نفتح معجما من معجمات اللغة الا رأينا ألفاظا ماتت لا يستعملها أحد فى هذه الايام ، ولا نفتح بعض كتب الادب القديمة الا وجدنا تراكيب أو استعمالات لا يأنس بها هذا العصر ، فلا خوف من موت بعض الالفاظ أو بعض التراكيب ولا خوف من ميلاد بعض الالفاظ أو بعض التراكيب ، انما الخوف كل الخوف من خروج اللغة فى هذا الميلاد عن روحها وعبقريتها ، الخوف كل الخوف من ميلاد ما لا يألفه ذوق اللغة ، ان الذين جددوا اللغة فى القديم ، وقد يكون أبو تمام على رأسهم ، قلبوا معانى الالفاظ من وجه الى وجه، فضيقوها حينا ووسعوها حينا وجاءوا بتراكيب حديثة ، الا أنهم لم ينحرفوا فى هذا الامر عن روح اللغة ، فاذا قرأنا شعرهم فانا نقرأ شعرا عربيا لاشعرا أعجميا ، أما أن يترك شأن توليد الالفاظ والتراكيب لجماعة طائشين ، مهوسين ، لا علم لهم باللغة ، ولا احاطة لهم بالادب ، ولا اطلاع لهم على تاريخ هذه اللغة وهذا الادب ، فهذا معناه فساد اللغة وضياعها .

وخلاصة الامر انى أشعر بأن العربية الصحيحة قد ضعفت فى هذا العصر ولا عبرة بفئة من اصحاب القلم لم تضعف عربيتهم ولا ضعفت غيرتهم عليها ، انما الخوف من هؤلاء النشء الذين أمسكوا بأقلامهم وأطلقوها فى كل مهب ، فلا نحن نفهم ما يقولون ، ولا هم يفهمون ما قالوا ، ولا نستطيع أن نقول : لهم فهمهم ولنا فهمنا ، فان اللغة ليست ملكهم وحدهم حتى يعبثوا بها كيف شاءوا ، وانما هى ملك الامة بحذافيرها ، وعلى الحكومات تقع تبعة الاهتمام بها كما تقع عليها تبعة الاهتمام بالمجرمين ، فهى التى تتولى فى مدارسها تدريب النشء على ذوق اللغة ، هى التى ينفخ أساتيذ مدارسها روح اللغة فى روح الطلاب ، فانا نخشى ان تنحصر العربية الصحيحة فى طبقة محدودة من أهل الادب وان تشيع فى الطبقات العامة عربية غير مفهومة وفى هذا الامر ما فيه من العواقب غير المحمودة .

شفيق جبرى